١٣ رائد الأفلام التسجيلية الأمريكية

بقلم : هيو جراى

جوردون : من بين الأسماء فى مقبرة مشاهير الصور المتحركة ود. و. جريفيث وإيزنشتاين وشابلين ، وكثيرون غيرهم يضاف إليهم اسم روبرت فلاهرتى الذى يعتبره كثير من الناس أعظم من صنع الأفلام التسجيلية وعرضها على الشاشة الفضية .

لقد كنت سعيدًا يا دكتور جراى لأنك عرفت فلاهرتى ربما أكثر من غيرك وذلك منذ أن أخرج فيلمه التسجيلى المشهور « إنسان آران » . لِمَ لا نبدأ مناقشتنا بإلقاء نظرة على فلاهرتى الرجل ؟ ! أى نوع من الناس كان ؟

جراى : حسناً ، إنه كان إنسانًا غير عادى فى كل طريقة من الطرق التى تخطر على البال . إن المرء لم ير شخصا مثله على الإطلاق ولعل أبسط طريقة لوصفه هى انطباعى الأول عنه . لقد حدث ذلك فى عام ١٩٣٢ وكنت إذْ ذاك ناقدًا سينمائيًّا ومسرحيًّا فى إحدى صحف لندن . وجاءنى رئيس التحرير وقال : « عندى فى المكتب شخص أريدك أن تجرى حديثًا معه . إنه يبدو رجلاً غير عادى وإننى لن أوفد مصورًا إلى مكتبك ، إننى سأرسل هذه المرة فنانًا ، لأن الرجل يستحق الرسم » . وهكذا ، جلست فى مكتبى أنتظر وأتساءل – أى نوع من الرجال هو – وفجأة سمعت صوتاً

كالرعد . صوتًا لأقدام رجل يرتقى سلمًا بأقصى سرعة ، ثم انفتح الباب بقوة على مصراعيه وبدا وكأن مصرعًا انخلع ووقف هناك أمامى رجل ذو مظهر رائع يبدو أنه مزيج بين إمبراطور رومانى ورئيس إيطالى – أو زعيم هندى من الهنود الحمر كان له بروفيل رائع ، وشعره الأبيض المتطاير ، وكان ضخم الجثة تبدو عليه حيوية لا تصدق .

وكانت عيناه الزرقاوان الفاحصتان مفعمتين بالقلق وكان يتكلم بلا انقطاع . صفرة القول إنه شخصية لا ترى مثلها إلا مرة فى حياتك . إن هذه هى أول مرة أرى فيها إنسانًا من هذا الطراز ، إنسانًا جذابَ الضحكة سريع الغضب ، ويمكن أن يصل فورًا إلى حد سورة الغضب مع التهاب عينيه . كان رجلاً حلو الحديث بل أعذب الرجال حديثًا .

جوردون : حسناً ، إن قدرته على رؤية القصص قد ظهرت بوضوح على الشاشة وهى تعتبر بالنسبة لى مثيرة جدًّا للدهشة والإعجاب لأن روبرت فلاهرتى لم يكن أساسًا صانع أفلام .

جراى : لا ، بالتأكيد .. ولكنه فى قوة الشباب وهذا أمر غير عادى كان أبوه من المنقبين عن مناجم النحاس . وأظن أن عائلته جاءت أصلاً من كندا واستقرت فى الولايات المتحدة ، وقد عاش الصبى حياة المعسكرات لعمال مناجم النحاس ، وقد حاول والده أن يرسله إلى المدرسة مع أنه كان أميًّا ، وقد هاله قرار أبيه ولكنه ما لبث أن اتجه اهتمامه إلى الجيولوجيا نتيجة لطبيعة حياته . والمعروف أن الجيولوجيا والتنقيب يسيران جنبًا إلى جنب ، وأخيرًا أوفدته الحكومة الكندية إلى المنطقة القطبية فى مهمة التنقيب عن المعادن . لم يكن يبحث عن النحاس ولكنه أعد بعض الخرائط ، وهناك بعض الجبال ، على ما أظن ، تحمل اسمه ، فقد اشتهر كالمستكشفين وكعلماء الأجناس البشرية ، كما اشتهر فى عالم السينما .

جوردون : كيف دخل شخص اشتهر كمستكشف وعالم من علماء الأجناس البشرية الحقل السينمائى مع أنه لم يسبق له أن أبدى اهتماماً بهذه الصناعة ؟ وما الذى حفزه على إخراج فيلم « نانوك الشمال » الذى عرض فى عام ١٩٢٢ .

جراى : حسناً ، إننى لم أستطع اكتشاف هذه الحقيقة ، وهى مسألة ذات أهمية بالغة ، ولا أظن أن ثمة شخصًا قد أوضح ذلك إن كل ما يذكره الناس عندما نقرأ أى كتاب عن ترجمة حياته هو أن الرجال فى الحكومة الكندية ، الذين قام فلاهرتى بمهمته الاستكشافية بناء على طلبهم ، قالوا له : لِمَ لا تأخذ معك كاميرا سينمائية ؟ وقد أخذ معه فعلاً كاميرا ، وهكذا بدا اهتمامه بالحقل السينمائى ، ويبدو أنه كان لدى الرجل استعداد كفنان .

وهناك أولاً وقبل كل شىء أوجه شبه كبيرة بين عين المستكشف وعين الكاميرا .. إن المستكشف يجب أن يكون قادرًا على الرواية وقراءة الأراضى المنبسطة أمامه .. وهذه هى الحقيقة وهى أنه أحب الجمال والإثارة كما أحب صراعات الإنسان وإلى جانب آخر فقد أحب العالم بمعنى حب جماله وقوته . وهكذا ، فإنه إذا اجتمعت كل هذه الأشياء معاً ، إلى جانب تجاربه المبدئية مع الكاميرا واكتشافه أن الأشياء قد كونت مجموعة ممتعة ، فمن الطبيعى فى النهاية أن يصبح هذا الرجل صانع أفلام أى مخرجًا .

جوردون : حسنًا ، لقد ركز اهتمامه على شخص واحد فى ذلك الجو المدلهم والمكفهر فى الشمال المتجمد . أيمكنك أن تحكى لنا شيئًا عن نانوك ، الصورة والرجل ، وكيف صنع هذا الفيلم ؟

جراى : نعم .. إن نانوك بالطبع هو اسم الممثل الأول ، أى الرجل الإسكيمو الذى كان الشخصية البارزة فى الفيلم ، كان فلاهرتى أثناء مهمته قد استخدم دليلاً ليرشده إلى الطريق ، وفى أثناء تجواله وعملياته الاستكشافية قابل نانوك الذى كان شخصية أخرى . إنك تعرف كيف أن هناك رجالاً يبرزون بين قبائل من الرجال

مشهد من فيلم «نانوك الشمال» من إخراج روبرت فلاهرتى (١٩٢٢) وهو أول فيلم تسجيلى .

المصدر متحف الفن الحديث

والأفراد ، أما بالنسبة لذلك الإسكيمو فإنه لابد أن يكون هناك شيء ما يمتاز به صادف هوى فى نفس فلاهرتى .. لقد كان رجلاً ضحوكاً جدًّا – وأنا أعرف أن رجال الإسكيمو يتمتعون بروح دعابة عالية ، وإلى جانب ذلك كان هذا الرجل الإسكيمو الذى عمل مع فلاهرتى ضخم البنية له خبرة طويلة فى الحياة فى تلك الأصقاع .. وكان ذلك كله ما جعل فلاهرتى يستجيب لذلك الرجل ويعجب به .

لقد أراد فلاهرتى أن يروى قصة هؤلاء الناس الذين عاش معهم فترة طويلة .. وإننى أعتقد أن تجاوب نانوك وحياته الشاقة والإثارة وقسوة المعيشة التى عاشها .. هى ما استلفتت أنظار فلاهرتى .

جوردون : ما الأثر الذى أحدثه الفيلم حينما عرض ؟ .. هل ساور جمهور النظارة نفس الشعور ؟ وهل كان الفيلم مشهورًا حينئذ كشهرته اليوم ؟

جراى : حسنًا ، لقد كان مشهورًا إلى أقصى حدود الشهرة ، وقد تلقّته جماهير النظارة كشيء جديد تمامًا ورائع كل الروعة . واحتل فلاهرتى مركزه كمخرج سينمائى فريد فى نوعه وذلك فى كل بلد من البلاد التى عرض فيها الفيلم . وتروى مسز فلاهرتى أرملته – التى توفيت منذ وقت غير بعيد – قصة ممتعة عن كيف أن شابا فى ألمانيا قد إليها وقال لها إنه أحب الفيلم لأن هناك فيه شيئًا عن نانوك الذى يمكن تمييزه به عن غيره . وهناك إلى جانب ذلك التصوير الرائع .. لقد كان الفيلم فى جملته من وحى الإلهام واستقبل بهذه الصفة . إننى لم أذكر أن أحدًا انتقد الفيلم .

جوردون : هل حولت هذه التجربة فلاهرتى إلى مخرج راسخ القدم ؟ هل ذلك ما كان يبتغيه ويعمل من أجله ؟

جراى : حسنًا .. نعم .. إننى أعتقد أن هذه التجربة فعلت ذلك ، وأظن أنه شعر بأنه وجد شيئًا يمكن أن يشغله تمامًا على شرط أن يجد الفرصة المناسبة . وكان الفيلم الأول الذى أخرجه بمثابة فرصة ليعرض فيه على الناس نظرته للإنسان . وكان ذلك

الفيلم نقطة تحول . ولكنها كانت نقطة تحول جد صعبة لأنه كان هنا فى حالة تحول إلى المجهول .. إلى إخراج نوع الأفلام التى لا تتم حسب تقاليد العالم التجارى . وبذلك أقدم على مجازفة خطيرة ، وإثارة أسئلة – ما الذى سيفعله بعد ذلك ؟

جوردون : حسناً ، لكى يعمد إلى إنتاج الجديد والتجديد انتقل إلى مناخ مختلف .. مناخ أكثر دفئًا .

جراى : نعم .

جوردون : إلى جزء مختلف من العالم بطبيعة الحال . وكانت النتيجة فيلم موانا البحار الجنوبية .. ولكن هذا الفيلم لم يكن فى مستوى جمال فيلم نانوك ؟

جراى : حسناً ، إننى أفترض أنك لو بدأت بعد ذلك فى تحليله فإنه يمكن شرحها بتلك الطريقة . ويمكن أن تقول إن النظرية نفسها تعرض من زاوية مضادة . ولعل من هذه انبثقت فلسفة فلاهرتى – ليست الفلسفة ، وليس ذلك الشىء الذى كان داخل فلاهـرتى نفسه الذى يجد طريقة إلى الخارج لو أتيحت له الفرصة ، وإنما هو شىء يمكن شرحه حتى يستطيع الناس أن يستوعبوه . ولقد قيل إنه بنفس الطريقة التى كان فيها نانوك رجلاً يظهر ضخامته وقوته ضد غوائل الطبيعة ، فهنا شىء ما ... شىء يمثل جزءًا من العالم حيث ينال الانسان كل ما ينشده ويبتغيه وأن كل ما عليه أن يفعله هو أن يجلس تحت شجرة حتى يتساقط طعامه منها إلى فمه ، وأنه ليس ثمة صراع ونضال وكيف أن الإنسان يحتاج إلى انضباط الصراع حتى يصبح إنساناً كاملاً . ويعرض الفيلم كيف أن الشاب يخوض غمار صراع ، وهو انضباط يمكن مساواته بصراع نانوك .

إذن كان هناك إنسان ضد الطبيعة العدو ، وافترض أنك إذا أردت أن تصوغها بصيغة أخرى . فإنك تقول إن هناك إنساناً يواجه صديقًا خطرًا – أى الطبيعة البالغة الكرم . على أننى أعتقد أننا يجب أن نتوخى الحرص هنا . وهناك مثل عند الإيطاليين يقول « لو لم يكن الشىء صحيحاً ، فإنه اخترع بمهارة فائقة . ولا يمكن للمرء أن يكون

متأكدًا متى يكون منكبًا على بحث عمل فنان عظيم ويجد ما يمكن أن نصفه بالشرح النظرى له .

جوردون : حسناً ، لقد استخدمت جملة واحدة حينما بحثت فيلم موانا وبحر الجنوب والجزيرة الفردوس ، والمشاكل المنطوية على مواجهة صديق بالغ الخطورة ، وإنك تستطيع أن تطبق ذلك على علاقات فلاهرتى بهوليوود .

جراى : حسناً ، إن علاقة فلاهرتى بهوليوود كل قوامها الكراهية المطلقة بعد تجربة فيلم (موانا) . أما فى فيلم (نانوك) فإنك ترى أشياء مثيرة حقا بطريقة مروعة ، فهناك موت .. أو على أية حال أخطار التعرض للموت . وهناك مشاهد الصيد المثيرة وأشياء أخرى رائعة — وليس ثمة شىء من ذلك فى فيلم (موانا) إن فيلم (موانا) خفيف ولطيف فى سير الأحداث كلها إلى أن تأتى للمحنة فى النهاية .

كان لاسكى مسئولاً عن إغفال شأن هذا الفيلم لأنه كان يأمل فى أن يعود شباك التذاكر عليهم بأرباح مثل فيلم (نانوك) ، ذلك لأنهم حينما شاهدوا الفيلم خاب أملهم حيث إنه لم يكن ثمة شىء فى الفيلم بالمعنى الدرامى الذى كانوا ينشدونه ، اللهم سوى مشهد سيدة عارية من عند الخصر فما فوق .

وهكذا ، فإنهم لم يعرفوا ما يفعلونه بالقيم ، ولكن فلاهرتى قال — « لنأخذ الفيلم إلى أماكن مختلفة ونقوم بشىء من الدعاية له » .

ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك ، ولم يكن فى استطاعتهم أيضًا أن ينفقوا أموالاً طائلة ضرورية لذلك النوع من الدعاية ومن ثم ، قرروا أن يقطعوه إرباً إرباً ، وهذا ما فعلوه ثم أنتجوا فيلماً باسم « حياة الحب عند سيرانة بحر الجنوب » (السيرانة كائنة أسطورية عند الإغريق لها رأس امرأة وجسم طير) . وهم لم يكتفوا بتقطيع الفيلم وإنما مزقوا معه النيجاتيف . وكان فلاهرتى (بوب) يحب الناس ، ولكن إذا أساء له أحد فإنه ينبذه ، وهكذا نبذ هو هوليوود .

إننى مازلت أذكر أنه قال لى ذات مرة .. إن المرور عبر هوليوود ، مثل المرور فى بالوعة فى قارب زجاجى » .

جوردون : أظن أن هناك أناساً اليوم يمكن أن يقولوا ذلك أيضًا ، ولكن هوليوود القديمة فى عهد جيسى لاسكى لم تعد معنا وأنها تغيرت أيضاً .

جراى : نعم .

جوردون : ولكنك وصفت فلاهرتى بأنه رجل عنيد .. أكان ذلك تصرفه فى أسلوب عمله ؟ كيف بدأ عمله فى حقل الأفلام ؟ وما هو سبيله فى إخراج فيلم (موانا) ؟ هل اكتفى بتجهيز كاميرته وتثبيتها فى مكانٍ ما ليصور ما كان يريد أن يصوره ثم قفل عائدًا إلى صالة العرض ؟

جراى : حسنًا ، إننا من هنا نبدأ لنصل إلى الكلمة التى ترددت عنه والتى استعملت فى وصف أسلوبه . وهذه الكلمة هى (التصور المسبق) .. إنها ليست كلمة يمكن أن تنطلق عفوًا من بين شفتى فلاهرتى ، ولكنها ربما تصف أسلوبه .

ولعله شعر أنه فى حالة فيلم موانا ، بعد أن نبذته هوليوود وطالبه العاملون بالسينما فيها بقصة ، قد يستطيع أن يجد شيئاً يمكن أن يجمع بين طريقته فى النظر إلى الأشياء وبين قصة . وراح يبحث عن ذلك ، ولكنه أخذ يشعر تدريجيًّا أن هذا الأمر غير ممكن ، ثم تحول أكثر فأكثر نحو النظر إلى الناس – ويراقبهم كما يعيشون ويدرس عاداتهم وبمعنى آخر ، إننا عدنا مرة ثانية إلى الكاميرا .. وراح يصور حياتهم بعاداتهم وتقاليد الزواج عندهم وكيف يعيشون عيشتهم اليومية .. يمارسون السباحة والتجديف وجميع مظاهر حياتهم اليومية ومدنيتهم الآخذة فى الزوال .

جوردون : إن عددًا قليلاً من المخرجين اليوم قليلاً ما يعطى نفسه فترة راحة قدرها أسبوعان أو ثلاثة أو أربعة أسابيع ، وهذا ضرب من الرفاهية . ولكن فيلم (موانا) قد ظهر فى عام ١٩٢٦ ثم ظهر فيلم فلاهرتى الثانى (إنسان أران) فى عام ١٩٣٤ – ماذا

كان يفعل فى هذه السنوات الثمانى ؟ هل استغرق منه فيلم (إنسان أران) ثمانية أعوام ؟

جراى : حسنًا لا .. لم يستغرق هذا العمل منه ثمانية أعوام . لقد كان خلال هذه الفترة مستغرقاً فى البحث هنا وهناك وحاول إعداد فيلم المدنية الهندية فى نيومكسيكو ، ولكن لم يسفر عن ذلك أى شىء .

لقد كان قلقًا دائم الحركة والتنقل وكان يبحث عن قصص . ولعله اعتقد بأن هناك شيئًا ما يمكن أن يفعله فى ألمانيا . ولربما كان يتطلع أيضًا إلى روسيا ، فقد كان يحترم رجالاً مثل دوفجينكو وإيزنشتاين احتراماً جما .

لقد كان الأمر بالنسبة إليه البحث عن أشياء جديدة ، ولكنه لم يستطع أن يجد شيئاً أو أنه لم يكن فى مقدوره أن يجد الموضوع والناس الذين يمكن أن يساعدوه .

إننى أعتقد بأنهم راحوا يعملون لتنفيذ الفكرة الهندية لمدة عام تقريبًا ، ولكننى لا أدرى ماذا حدث .. إننى لم أر شيئا من ذلك الفيلم ولا أعرف ما إذا كان قد أتلف أم لا . ولكنه لم يسمع عن قصة إلا بعد أن وصل إلى إنجلترا وعبر الأطلنطى . كانت قصة رواها رجل مهذب – ولعلها رويت له بطريقة جذابة ، وإن لم تكن بالضرورة حقيقية. ولربما رويت له فى آخر ليلة من الليالى فى بار السفينة وكانت القصة تدور حول أسماك القرش وقد شعر إذ ذاك أنه حصل على موضوع جديد .

وقد جاء إلى إنجلترا من ألمانيا بناء على اقتراح جريرسون .

جوردون : لقد كان جريرسون حينذاك قد اكتسب شهرة كمخرج أفلام تسجيلية .

جراى : أو .. نعم .. إننا الآن فى عام ١٩٣٢ ، وكان جريرسون قد بدأ بالفعل فى إنتاج بعض الأفلام . ولكنه كان قد بدأ فى صناعة الأفلام قبل أن ينظم وحدة مكتب البريد العام التى عمل فلاهرتى لحسابها فقد بدأ عمله لحساب مؤسسة تدعى مجلس التسويق الإمبراطورى فى منتصف العشرينيات . وكانت المهنة داخل بلاد الكمنولث البريطانى ضعيفة جدًّا ، وكان هناك اتجاه للعمل السينمائى خارج نطاق الكمنولث ومن

ثم جرت حركة برئاسة اللورد بيفربروك . الذى وجّه قوة صحيفتى (الديلى إكسبريس ، والصنداى تايمز) نحو دعم الحملة للعمل على أساس امتيازات خاصة داخل الكمنولث ، وقد أقنعهم جريرسون باستخدام فيلم لتنشيط هذه المهنة . وكان فيلم (أغنية سيلان) الذى يعتبر من أشهر الأفلام التسجيلية من ثمار هذه الحملة ، وكان الفيلم يتناول موضوعا يتعلق بتجارة الشاى .

وفى الوقت نفسه أراد جريرسون الذى أثبت وجوده أن يخرج فيلمًا عن الصناعة .. كان دائمًا يريد أن ينتج فيلمًا عن الرجل العامل فى المصانع وما إلى ذلك . كما أراد أن ينتج فيلمًا عن بريطانيا الصناعية ، وفى الحقيقة كان جريرسون وهو الذى وصف فيلم (نانوك) الذى أخرجه فلاهرتى بأنه فيلم تسجيلى ، وكان هو الذى أدخل هذه الكلمة إلى لغة الأفلام ، وكان جريرسون قد أحس بمهارة فلاهرتى فدعاه إلى إنجلترا ، وعمل كلاهما فى فيلم (بريطانيا الصناعية) . وإلى جانب ذلك شعر جريرسون بأن هذه فرصة ذهبية للشباب الذين جمعهم حوله للعمل مع فنان عظيم ومصور بارع .

ولكن للأسف أدى ذلك إلى حدوث انفصال بينهما لم يلتئم على الاطلاق . ويتضح من ذلك أن لكل من فلاهرتى وجريرسون طريقة مختلفة . وهذا هو السبب فى أنه من السخف الحديث عن فلاهرتى كمخرج لأفلام تسجيلية أو وصفه بأنه (رائد الأفلام التسجيلية) إن هذه قصة أخرى .

جوردون : حسنًا .. كيف انتقل فلاهرتى إلى أران ؟ .. وأضاف أنك ستقول للمستمعين أين تقع أران « وتصفها بإيجاز » .

جراى : حسنًا ، إن أران اسم لمجموعة من الجزر – جزر أران . وهى ثلاث جزر . وكلها تجاه ساحل أيرلنده الغربى وتجاه جالواى . وقد جاء فلاهرتى آخر من هناك ، وهو ليام أوفلاهرتى الروائى المشهور ، وهذه الجزر مشهورة تكثر فيها الصخور الوعرة وتحيطها

أمواج البحار الهائجة . وصفوة القول فإنها تتوفر فيها جميع المناظر التى تستهوى خيال فلاهرتى .

جوردون : هل هى قصة أسماك القرش التى حفزت فلاهرتى للذهاب إلى هناك ؟

جراى : نعم .

جوردون : ... لأن جزءًا كبيرًا من الفيلم يتناول صيد أسماك القرش .

جراى : نعم .

جوردون : .. إنه جزء درامى جدًّا .

جراى : حسنًا .. إن هذا الرجل الذى أشرت إليه آنفاً وهو على ظهر السفينة ، هو الذى روى لفلاهرتى قصة أسماك القرش . ونحن هنا فى كاليفورنيا عندنا شىء مشابه لذلك .. ولقد حدث أن تعقبتها فى قارب منذ ثلاثة أشهر .

جوردون : حيتان رمادية !

جراى : نعم .. إن الطريقة واحدة .. إنها كانت متجهة إلى منطقة تناسلها ثم مرت بجزر أران . وهى ضخمة جدًّا وهى تأتى إلى هنا ، وتعتبر جزءًا من ظاهرة الحياة لهذه الجزيرة .. ولهذا الجزء من العالم . وكما رويت القصة لفلاهرتى . كان سكان الجزيرة يصطادون أسماك القرش ثم ينزعون منها أكبادها . ويصفونها لاستخراج زيت يستخدمونه لمصابيحهم . كان هذا أحد الأشياء التى استرعت اهتمامه .

ثم هناك بالطبع البحر .. ثم شىء آخر وهو أن هذا الرجل تحدث إليه عن قسوة الحياة فى الجزيرة حيث كانت هناك تربة طبيعية قليلة إن كان ثمة شىء منها . حتى هذه التربة قد عمل الناس عل تطويرها وتغذيتها بالحشائش البحرية التى كانوا يحصلون عليها من المحيط وتحطيم الصخور وبذلك تمكنوا من تشكيل تربة استنبتوا فيها غذاءهم الأساسى والبطاطس وغير ذلك ، ومن ثم ، فإننا نجد هنا قصة الإنسان فى مقاومة الطبيعة .. الانسان كما تعرفه بشجاعته وقوته وقدرته على المقاومة ! وهناك البحر وسمك

القرش والكفاح من أجل البقاء وقدر كبير من الكرامة والنبل ، كان هذا كله بطبيعة الحال قد استلفت نظره واسترعى انتباهه .

جوردون : حسناً إننى أظن أنك هنا أول مرة قابلت فيها فلاهرتى فى مكتبى ، وأظن أنه فى ذلك الحين كان منهمكاً فى إخراج فيلم (بريطانيا الصناعية) . نعم قبل ذلك .. أى فى عام ١٩٣٢ .

جوردون : هل ذهبت إلى الجزيرة ؟

جراى : إننى لم أذهب معه .. لقد كنت أقابله كثيرا بعد أن انتهى الفيلم وأن ما كنت أفعله هو أننى كنت أجلس معه فى غرفة التشطير أو فى صالات العرض وعملنا معًا . والسبب فى أنه كان يريدنى معه هو أننى أولاً كنت أيرلنديًا ولى معرفة بالبلاد وأشعر بها ، وكان يريد عناوين للفيلم لأنه كان فيلمًا صامتًا . وثانيًا كان يعرفنى كاتبًا ، وكنت أول من أجرى حديثًا معه حينما جاء إلى إنجلترا .

جوردون : لقد كان هناك صوت فى الفيلم ولكن لم يكن هناك حوار بالمعنى الدقيق ، أنت تعلم أن تلك كانت الفترة التى أسف الناس لغياب الصوت ، وأننى لا أعرف ولم أسمع فى الحقيقة (بوب) يقول شيئًا عن ذلك ، ولكننى بالتأكيد سمعت فرنسيس (مسز فلاهرتى) تتحدث كثيرًا عنه وكثيراً غيرها من الناس بما فى ذلك الشاب الذى كان منتجه ، أو مساعده فى الإنتاج فى الجزيرة تتحدث إلى الناس المؤيدين للصمت والمعادين للكلام . كانت تلك هى الفترة التى مازال الناس فيها يأسفون لدخول الصوت للسينما ، وإلى جانب ذلك ، فإنك لو كنت ممن أسفوا لدخول الحوار لأصبحت من حواريى إيزنشتاين .. هل تذكر كيف عمد إيزنشتاين وبودوفكين والكسندروف إلى إصدار بيان عن الصوت بعد دخوله صناعة السينما ؟

لقد تقبلوا الصوت .. وليس ثمة شك فى أنهم لم يكن لديهم حيلة سوى قبول الصوت بسبب النواحى الحالية للتاريخ .. ومهما يكن من شىء . فقد جاء الصوت ،

كان جزءًا من عملية ، وكان أمراً لا مفر منه ، ومن ثم فإنك لو كنت ماركسيًا لما استطعت أن ترفضه . ولكنه كان بمثابة الموت للفن فى ذلك الوقت بالذات . والموت للمونتاج لأن المونتاج كان حينذاك بديلا للصوت .

ومن ثم كان عليهم ان يختاروا – أيقبلونه ؟ لِمَ لا يقبلونه ؟ – واختاروا القبول بصفة مؤقتة . إنهم قبلوه وكان ذلك يعنى نسبه لايزنشتاين ، إن الفيلم أخذ يتحول إلى المسرح الذى أسف له والذى ابتعد عنه . ولقد تنبأ بإعادة عرض التمثيليات فى صورة أفلام فترة من الوقت إلى أن يتم تحريك الميكروفون والتعود عليه . ومن ثم قال إذا كان لابد من الصوت فليكن ذلك ، ولكن لن يكون هناك حوار . وربما ستعمد إلى تكليف البعض بإصدار بيانات توضيحية من وقت لآخر حتى تستطيع أن تتذكر بعض الأقوال التى يفوه بها الممثلون ، ولكن هناك فقط نوعًا واحدًا من الحوار الذى مازال تحقيقه بعيدًا جدًا . إن الممثلين لم يواجه أحدهم الآخر . وكما قلت فإن جولدمان ، هذا المحرر الشاب كان تحت تأثير إيزنشتاين إلى حد كبير . وإلى جانب ذلك كانت فرنسيس زوجة إيزنشتاين تحت ذلك التأثير أيضاً وهكذا ، كان هناك فى الفيلم صوت معين ومؤثرات صوتية بحرية مسجلة .

جوردون : هل هذه المؤثرات الصوتية البحرية أعدت فى جزر أران ؟

جراى : تمامًا .. إنها أعدت هناك .

جوردون : كان ذلك فى الوقت الذى لم يكن لدينا أجهزة تسجيل متقدمة .

جراى : نعم .

جوردون : ... أو الكاميرات الخفيفة الوزن وكل شىء .

جراى : نعم .. ولا أن تسمع بعض المؤثرات الصوتية الطائشة .. وقد تسمع أيضًا تعليقًا يقول – (أوه ... كن حذرًا .. كن حذرًا .. أوه .. إنها ذاهبة ..

جوردون : إن ثمة أشياء أخرى فى ذلك الفيلم هى التى لا يمكن أن تنسى .. وهذه

هى المناظر البحرية الرائعة أو القوارب الصغيرة التى ترى عند أفق الماء ؛ وقوة البحر المروعة الهائلة التى تستطيع أن تحطم قاربًا إربًا إربًا أمام عينيك ، ثم صفة الولد الصغير الجامح الذى اعتقد أنه هو النجم .. كم كان عمره ؟

جراى : الولد الصغير ؟ .. كان يبلغ من العمر حوالى ١٢ عاماً .

جوردن : اثنى عشر عاماً ؟

جراى : أربعة عشر عاماً على ما أظن .. فقد بلغ الرابعة عشرة عند انتهاء العمل .

جوردون : هل هو الصبى الذى شمله فلاهرتى برعايته طوال الفيلم وكان موضع اهتمامه ؟

جراى : نعم .. نعم .. لقد كان دائمًا معه .. وهذا شىء رائع حقا .. لم يكن هذا رأيى فقط وإنما كان رأى الناس كلهم .. والسبب فى ذلك أن فلاهرتى – بوب – كانت له ثلاث بنات – وكلهن نساء جميلات مرحات ، ولكنه كان يشعر بالأسى لأنه حرم من الولد ، ومن ثم فإنك تلاحظ كيف كان الولد لامعاً فى أفلامه .

جوردون : حسناً .. لقد كان فيلم (قصة لويزيانا) كله يدور حول الولد .

جراى : نعم .

جوردون : وحيوان الراكون (الراكون حيوان أمريكى) .

جراى : نعم .

جوردون : إننى أذكر ذلك .

جراى : حسنًا ، إنك كنت تتحدث عن الولد .. صحيح أنه كان يعتبر عينه .. وكثيرًا ما كان الصبى الصغير هناك ينظر إلى البحر .. إنه الولد الصغير الذى كان أول من رأى سمك القرش وهو ينظر إلى أسفل أثناء لعبه .

جوردون : كان الصبى فى ذلك المشهد يظهر جالسًا وقدماه متدليتان من خلال سياج من الأعمدة الحديدية يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام فوق الصخور وقد ألقى

بشصه لصيد السمك . ومضى وقت لم يعرف مداه حينما جذب خيط السنارة التى كانت سمكة معلقة فى طرفها ... لقد كانت هذه بالنسبة لى حياة كئيبة – كما أشرت إلى ضرورة استنبات الحشائش البحرية من خلال شقوق وثقوب تحفر فى الصخر تمهيدًا لتحويلها إلى حديقة لاستنبات البطاطس .

جراى : نعم .

جوردون : لقد كان هناك فى الوقت نفسه جو من الهدوء والسكينة يخيم على الحياة والناس معًا .

جراى : نعم .. نعم .. حسنًا .. إن السكينة معنى جميل . وإنك ستجدها أيضاً فى تمثيلية (ركاب البحر) .. إنهم كما ترى يقبلون البحر ولا يحاربونه .. وكما قال (بوب) إن هذه حقيقة .. حقيقة فى كل مكان .. حقيقة فى أفريقيا .. وهناك مناطق فى العالم لا يتعلم أبناؤها حتى السباحة لأنهم يعتقدون بأن البحر يجب أن يبقى على سجيته وطبيعته وليست هذه وجهة نظر حديثة . وإنما هناك تقليد قديم ، ومن ثم فإن هناك ذلك السيد .. ذلك الشىء الهائل – هذا الإله نبتون – الذى يمكث هناك ويلوح لهم بصولجانه أو رمحه الثلاثى الشعب من وقت لآخر . إن ذلك بالتأكيد يجعل هذا الأمر الذى أشرت إليه غير قابل للتصديق .. أعنى مشهد القارب . فهذا المشهد يجعل الفيلم أكثر إثارة .

إننى لست متأكدًا مما هو أكثر دراميةً .. أهى قصة إعداد الفيلم أم مشاهدته على الشاشة . إن قصة إعداده غير عادية . لقد كان لفلاهرتى أسلوبه فى كسب كل شخص .. صحيح كان هناك بعض العداء والصراع عند وصوله إلى الجزيرة ولكن سرعان ما استطاع (بوب) وزوجته فرنسيس أن يكسبا ود كل شخص هناك وأصبحا من أعز أصدقائهم ، وأخيرًا أصبح كل من فى الجزيرة على استعداد لعمل أى شىء لفلاهرتى .

ومن حسن حظ فلاهرتى أنه كان هناك فى الجزيرة رجل اعتقد أنه كان قد أبعد من الولايات المتحدة منذ بضعة أعوام بسبب أنشطته العمالية المشبوهة وكان هذا الرجل بمثابة حاجز بين فلاهرتى وسكان الجزيرة .. لقد كافح هذا الرجل من أجل حقوقهم . ولكنه فى الوقت نفسه كان يجل فلاهرتى ويحبه وعلى استعداد لأن يفعل أى شىء من أجله .

وكانت هناك مسألة عمل أى شىء من شأنه إضفاء السمة الدرامية للبحر .. وإظهار كفاح الإنسان ضد البحر .. كان الشىء الذى يملكه سكان الجزيرة بعض القوارب البدائية التى يحطمها البحر .. وهى مصنوعة من قطع من الخشب والعصى ومكسوة بجلود الفقمة . وكان المطلوب وضع بعض القوارب على صخرة ثم لا تلبث الأمواج أن تقذف بها بعيدًا وتختفى عن الأنظار . والهدف الرئيسى من ذلك هو إظهار الإنسان فى ذروة شجاعته وهو يصارع البحر .

لقد كان فلاهرتى يريد أن يفعل ذلك ولكنه لم يكن يجسر على تنفيذه .. هل يستطيع مطالبة أصدقائه بالمجازفة بحياتهم ؟ ولكن « باتْ مولين » ؛ الرجل المنفى إلى الجزيرة أكد لفلاهرتى أنه سيقنعهم بذلك . ولقد وضع بات مولين نفسه ، كما تعرف ، كتابًا بعنوان « إنسان أران » وهو كتاب رائع بحق ، وأصبحت ابنته بربارة مولين ممثلة مشهورة . ويصف فى هذا الكتاب كيف أنه توجه إلى ثلاثة من أقوى رجال الجزيرة وراح يشيد بأسلافهم وقال « لقد امتدحت أسلافهم ، وتحدثت عن قوتهم الخارقة وعن أى نوع من الرجال العظام هم ، وقلت لهم كيف أنهم يستطيعون إظهار شجاعتهم وقوتهم للعالم كله . وقد اقتنع الرجال واشتعلت حماستهم وأدوا ما طلب منهم على أكمل وجه وكان مشهدًا رائعاً .

جوردون : ولكن كانت هناك مأساة على وشك الوقوع طول الوقت ..

جراى : نعم .. كل الوقت ، وكانت ثمة لحظة رائعة حينما كانت هناك صخرة ثم

جاء ذلك الشيء الصغير يقترب من الجزيرة وهو يتأرجح ، واستطاع أن يلف حولها . ونزل الرجال من القارب وصعدوا إلى الجزيرة حيث قضوا ثلاثة أيام واحتفلوا بهذه المناسبة وراحوا يركبون الخيول ويشربون ويمرحون .

جوردون : إننى أذكر أننى سألت نفسى ، هل هؤلاء أناس حقيقيون .. ليسوا ممثلين .. إنهم ليسوا أقزامًا .. وكانت القوارب سليمة لم تمزق ، ولكنها لو استقرت على الصخرة لتمزقت .

جراى : تمامًا .. لقد كانت مناسبة هائلة ولم تستطع مسز فلاهرتى أن تراقب العملية حينما وصلت إلى ذروتها فى حين كان زوجها (بوب) هو القائم بمهمة التصوير ، لم يكن يستحسن الفكرة فى أن شيئًا ما قد يحدث لهم .

والآن ، إن الشيء المهم – وأنا أفشى لك سرا إن لم تكن لاحظت ذلك بنفسك – هو أن «تايجركنج» الرجل الذى تولى القيادة ، كان شخصًا غير عادى وحسن الصورة ، ولكنه لم يكن من سكان جزيرة أران . كان رجلاً يقيم فى الجزيرة ، وكان غريب الأطوار محبا للتجوال والتنقل ، وقد قابلته كثيرًا ، واعتاد أن يتردد علينا من حين لآخر . وحينما اصطحبتهم إلى أيرلندة كنت دائمًا أجده أمامى ..

وفى ليلة العرض فى دوبلين ، لم أجده ، وقصدته فى مقاصف المدينة حيث وجدته فى أحدها .. على أية حال .. كان رجلاً ممتازاً .. كان يمتهن الحدادة ثم أصبح جنديًّا فى قوة البوليس الأيرلندى ...

جوردون : من الغرابة ألا تكون هناك خيول فى جزيرة أران .. هل كانت هناك خيول فى تلك الجزيرة ؟

جراى : نعم .. هناك مهرة صغيرة ولكنك لم ترها بالتأكيد . ولكنك قد تراها صدفة . على أية حال إن ما كنت سأقوله لك هو أن «تايجركنج»، كما كان يسمى ، لم يكن يستطيع التجديف فى أى قارب من تلك القوارب . ومع أنه كان البطل وأحد

ثلاثة ، ولكنه لم يكن معهم فى القارب . وإنما عاد إلى الظهور عندما وصلوا إلى الشاطئ .

جوردون : ما هو مدى هذا النوع من الوهم أو التمويه الذى مارسه فلاهرتى فى الفيلم ؟

جراى : حسناً ، لم يمارس هذا التمويه سوى فى تلك المرة .. أى فى عملية القارب ولا أعرف عن عملية أخرى ، ولم يتكرر ذلك فى أى مشهد من المشاهد وكان كل ما حواه فيلم (نانوك) حقيقيًّا .

جوردون : لقد قلت شيئًا قبل ذلك عن جمهور النظارة بأنه يتقبل الأشياء الحقيقية .

جراى : نعم ..

جوردون : كيف استقبل جمهور النظارة فيلم (إنسان أران) ؟

جراى : أوه .. لقد استقبل الفيلم استقبالا رائعاً ، واشترت شركة جومونت – بريتيش حق توزيعه وعرضه فى ما يعرف فى لندن بمسرح « الوست إند » الذى يسمى مسرح الجالارى الجديد .

جوردون : هل كان هذا الفيلم أول نجاح يحققه فلاهرتى ؟

جراى : حسناً لقد حقق فيلم (نانوك) نجاحًا ماليًّا كبيراً . ولكنه كغيره من أفلام فلاهرتى صاحبه قدر كبير من الاستغلال .. وقد تم إعداد الفيلم بنقل سكان الجزيرة هنا وهناك . وقد اصطحبت ماجى – الأم – ومايكل الصغير وتايجر كنج – إلى عدد من الأماكن حول انجلترا . وقد قاموا بالتمثيل على المسارح وكانوا معنا أيضًا فى العرض الأول للفيلم فى دوبلن .

جوردون : لقد كنت طوال الوقت تذكر فرنسيس . زوجة فلاهرتى . فما هو الدور الذى اضطلعت به فى صنع الأفلام ؟

جراى : أولاً وقبل كل شىء ، كانت إلى حد ما تعتبر الخلفية المالية . وكان لدى بوب زوجها بعض المال ولكنه لم يكسب ما يكفى ، ولكنها كانت على عكسه تكسب كثيرًا . وكانت بالنسبة إليه الأم والممولة والمرشدة والفيلسوفة والصديقة ، وإلى جانب ذلك كانت خبيرة ومصورة رائعة وكانت هى التى صورت جميع اللقطات الثابتة الجميلة ، وأذكر أنه حينما كنا فى دوبلين لحضور حفل الافتتاح،أقيم معرض كبير فى المتحف القومى للقطات التى صورتها ، ومما يعرف عن فرنسيس أنها كانت منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا تنظم ندوات بالقرب من منزلها فى فيرمونت . عرفت (بندوات فلاهرتى) ثم تطورت هذه الندوات إلى ندوة دولية تجمع العاملين فى صناعة السينما من الشباب معاً وتشجعهم على انتهاج طريق الواقع الذى انتهجه فلاهرتى فى أفلامه . وفضلاً عن ذلك ألفت كتابين وألقت محاضرات فى كل مكان ، وصفوة القول كانت مسز فلاهرتى سيدة ممتازة وامرأة رائعة وصديقة وفية ، وكان والدها أحد الرجال المهمين فى الحقل الجيولوجى فى الولايات المتحدة .

جوردون : إننا من حيث الترتيب الزمنى قد سبقنا الأحداث لأنه لم يذهب إلى فيرمونت حتى نهاية الثلاثينيات وبعد أن كان قد انتهى من فيلم (صبى الفيل) .

جراى : لقد كان فيلم (صبى الفيل) من وجهة النظر هذه كارثة . إن الذى لم يعرفه كثير من الناس هو أنه فى الفترة بين إخراجه فيلمى أران وصبى الفيل أنه كان يبحث عن جميع أنواع القصص ، وقد جعلنى عضوًا فى الجمعية الجغرافية الملكية وكنا نقضى وقتاً طويلاً هنا فى بحث الأمور وكان فى الوقت نفسه يبحث عن مادة ويحاول فى الواقع إخراج فيلم عن ليفنجستون .

وبعد ذلك أخبره أحدهم عن فكرة مصدرها كيبلينج ، وهى موضوع قصة – تومائى الفيل ، على أية حال تم إخراج فيلم (صبى الفيل) ... لقد توجه فلاهرتى إلى الهند وكان يتردد عليها من حين لآخر . وكان الرجل الذى كان فلاهرتى يخرج الفيلم

لحسابه بدأ يشعر بالقلق ، وقال له إن الفيلم أخذ يكلف كثيرًا .. وقد استدعى الكسندر فلاهرتى إلى منزله وأنهى شقيقه زولنان العمل مع فلاهرتى .. ولكن كان الفيلم يتضمن مشاهد عن سابو والفيل فى الهند ولكن الجانب الأكبر منه – أى الفيلم – قد صور فى استوديوهات خارج لندن .

جوردون : لِمَ لا نعود إلى آخر فيلم تسجيلى كبير أخرجه فلاهرتى وهو فيلم (قصة لويزيانا) والمستنقعات فى جنوب الولايات المتحدة ؟

جراى : نعم .

جوردون : كيف عثر على القصة أو هل أن القصة هى التى عثرت عليه ؟

جراى : حسنًا ، ليست القصة هى التى وجدته ؟ ولكن المهمة هى التى وجدته ، لأن شركة ستاندرد أويل كومبانى أوف نيو جيرسى كانت تبحث عما يمكن أن تسميه بعلاقات عامة غير عادية . على أننى لا أعرف كيف طرأت لهم فكرة تكليف فلاهرتى بهذه المهمة ، على أنه يبدو شيئًا طبيعيًّا أن يكلف رجل من هذا الطراز . كانوا هم الذين اتجهوا إليه وقالوا له ما الذى عليك أن تفعله ؟ إننا نريد أن نظهر للناس أننا فى الواقع لسنا أناساً مزعجين ، ونود أن نستلفت انتباه الناس ونثير اهتمامهم بالطريقة التى يجرى فيها استخراج البترول من بطن الأرض . وبادر هو وزوجته فرنسيس على الفور بالذهاب إلى « بانون روج » حيث تفقدا المكان ودرساه ثم اتجها بعد ذلك إلى أوكلاهوما وزارا جميع الأماكن حيث كانت تجرى عمليات الحفر وما إلى ذلك . على أنهما لم يجدا شيئًا يستحق الاهتمام واستبد بهما اليأس وكادا يتخليان عن المهمة .. ولكن حدث ذات يوم أن قدم إليهما أحد العاملين فى عملية الحفر وقال لهما : (أتودان أن تزورانا ؟ إننى سأدق بريمة فى مستنقع . وبينما هما يراقبان العملية من بعد إذ بهما يصرخان فجأة .. يا إلهنا .. لقد وجدنا قصتنا ..

فهناك فى ذلك المستنقع الزاخر بالنبات البرى الطويل وفى تلك المنطقة الموحشة بدا

أثر عمليات الحفر والعثور على البترول ، وما يعقب ذلك من قيام صناعة عند المستنقع ، وأنك لتلمس ما كان ذلك يعنى بالنسبة للصبى الصغير الذى اختاره .. وأنك ترى ما كان ذلك يعنى أيضاً للعائلة .. أنك ترى التنافس بين حب الولد الصغير للطبيعة والشعور العام للطبيعة حولها .. وكان الإنسان طوال الوقت منهمكاً فى العمل صناعيًّا ، مستخرجًا البترول من بطن الأرض ولإدارة الآلات وتشغيلها ... وكيف أن الإنسان أصبح فى استطاعته أن يعيش مع آلاته . ولعل هناك مثالاً لهذه الفلسفة يكمن فى قدوم الآلة إلى المستنقع ، ثم تعلم الإنسان أن يعيش مع تلك الآلة .

جوردون : حسناً ، إنها لصورة بالغة الروعة والجمال . وقد أشاد أقطاب العاملين فى الحقل السينمائى بالفيلم .

جراى : أوه .. نعم .. تماماً .. إننى أذكر أننى كنت فى الأستوديو حينما جرى عرض خاص للفيلم . وكان رينوار وعدد من كبار العاملين فى عالم السينما والأفلام موجودين ، منهم رجل يدعى البرت لوين . وهو منتج أفلام ومخرج مشهور من شركة مترو – وكان شابلين أيضاً موجوداً فى تلك الليلة يشاهد الفيلم وقد أعجب الجميع بالفيلم وبعثوا إليه ببرقية تهنئة ، وأذكر أن هناك موجة من الإثارة اجتاحت الصالة بعد عرض الفيلم ، وجدير بالذكر أن من بين من شاهد العرض فى تلك الليلة فولكنر ، وهو مؤلف أمريكى مشهور .. كان قد أخذ مقعده فى آخر القاعة كعادته .

جوردون : أعتقد أن هذا النوع من الصور المتحركة لابد أنه أعجب فولكنر لأنه يمثل سيطرة الإنسان على الأرض .

جراى : نعم .. صحيح ...

جوردن : ولكن روبرت فلاهرتى قد مضى ولم يعد معنا .. ولكن أفلامه باقية .. ماذا تعنى هذه الأفلام بالنسبة لنا اليوم ؟

جراى : إننى أعتقد أنها تعنى بالنسبة لنا تمامًا كما كان هو يأمل فى ذلك إنها تعنى

شجاعة الإنسان ومعنى روعة العالم وجماله الذى يعيش فيه .. وحب الإنسان .. وهذا هو السبب فى أننى لا أعتقد أن بوب مخرج أفلام تسجيلية . إننى أؤمن بأنه مخرج أفلام واقعى جديد .. إن العالم كما هو الآن قبل أن يحكم عليه الناس بأنه عالم خير أو عالم شر.. إن أفلامه تبرز حب الأشياء .. وحب الإنسان مع اتسامها بفن رفيع رائع .. وإننى أعتقد أن هناك مخرجين اليوم قد تأثروا به وأن أثره سيعيش .. وله حواريوه ، فهذا الأثر لن يمحى أبدًا .

obeikandl.com